أبو العلاء المعرّي في "سقط الزند" و"اللزوميّات"

للأستاذ: حسن الكرمي
(عضو شرف في المجمع)

وصلني العدد الأخير من مجلة المجمع للسنة السادسة فقرأته وقرأت منه بصورة خاصة مقال الدكتور سحبان خليفات: "دراسة نقدية لبعض المعالجات الرئيسية لكتابات المعري".

وقد لاحظت أن الدكتور خليفات قد أتعب نفسه في الاطلاع على ما كتبه العرب وغير العرب عن المعري وآرائه وأسلوبه ومذهبه، ونظرته إلى الدين والأديان. ورأيت في أثناء قراءتي للمقال استعمال عدد من الكلمات الغريبة على العرب والقارئ العربي مثل: أنطولوجيا، وابستمولوجيا، والميتا فيزيقا، والستيرنوسكوبية، وغيرها. وقرأت أيضاً ذكره لبعض فلاسفة اليونان في أول العهد، مثل الكسيما ندريسي، وأمبيدوقليس؛ وقرأت عبارات وكلمات غير مألوفة في الفكر العربي مثل" اللاعقلانية – قرأت هذا وغيره عن الفلسفة اليونانية وعلاقتها بأبي العلاء؛ كما قرأت عما قاله المحللون عن أسلوب المعري في الفكر واللغة، ولكني خرجت من هذه القراءة بشيء واحد هو أن الدكتور خليفات ترك القارئ أجهل بأبي العلاء مما لو لم يقرأ المقال؛ لأن السيد الدكتور، لكثرة ما أتى به من آراء، جعل في ذهن القارئ بلبلة شديدة؛ فأولاً لا يجوز جمع جميع كتابات المعري في صمام (أو إطار) واحد، لأنها يختلف بعضها عن بعض في الأسلوب والموضوع؛ فسقط الزند، مثلاً، شعر عادي كشعر سائر الشعراء، في حين أن لزوم مالا يلزم شيء آخر؛ فدراسة المعري يجب أن تكون في غير سقط الزند. ثم أن المعري ليس له علاقة بالفلسفة اليونانية، ولا أدري ما علاقة المعري بالأنطولوجيا والأبستمولوجيا؛ بل ما علاقته بألكسيما ندريس وامبدوقليس؟

وكنت فيما مضى اهتممت بدراسة المعري عن طريق لزوم مالا يلزم،

وبوبت الأشعار تحت أبوابها المختلفة، وخرجت من ذلك بأن أبا العلاء متأثر بالأديان الهندية والفارسية، وغير متأثر بالفلسفة اليونانية. ثم رأيت أن المعري يرى أن الحياة في هذه الدنيا قصيرة تنتهي بالموت، فهي لا خيرّ فيها، وإنما هي مجاز إلى الآخر المجهولة، فكلّ ما فيها غرور للشهوات والعقل. وخرج المعري من ذلك بالتشكيك في كل شيء، والتشكيك في حقيقة ما يقال عن كل شيء، حتى عن الأديان. وأعتقد أن أحسن خلاصة لآراء المعري هي مقدمة برزويه لكليلة ودمنة، ففيها جميع فلسفة المعري باستثناء رأيه في البعث وفي مصير الروح بعد خروجها من الجسد. ولعلّ الذين ترجموا كليلة ودمنة، وفي مقدمتهم ابن المقفّع، أهملوا جزءاً كبيراً من مقدمة بروزيه.

ورأيت أن الدكتور خليفات يعتمد على كتاب "تاريخ الأدب"، لنيكلسون، وكان الأجدر به أن يعتمد على كتاب خاص للزوميات لهذا المستشرق بعنوان "Studies in Islamic Poetry"، فقد جمع أشعار المعري من اللزوميات عن أهمّ الموضوعات التي تصدّى المعري للكلام عنها. وثمة كتاب آخر عن المعري خاصة في سلسلة "The Wisdom of The East"، واسمه "Abul-Ala The Syrian"، وكتاب آخر في السلسلة نفسها اسمه "The Diwan of Abul-Ala".

وأقول في خاتمة هذه الملاحظة القصيرة إن الكتابة عن أبي العلاء تقتضي النظر فيما كان يتفاعل في محيط أبي العلاء من فلسفات فارسية وهنديّة، مع صرف النظر عن الفلسفات اليونانية. ومع أن الكاتب الكريم أشار إلى عدد من الأفكار الغريبة في شعر المعري، لم يفسرها، واكتفى عندما أورد ثلاثة أبيات للمعري بالقول: "إن في شعر المعري ما لا يمكن لغير دارس الفلسفة والمتعمّق فيها أن يفهمه". ولكن ما هي هذه الفلسفة؟ وهل دراسة المعري تحتاج إلى دراسة أديان أم إلى فلسفة؟

واسمحوا لي أن أقول إن البحاثة العرب يبحثون الموضوع من حيث

الاشتقاق اللغوي، وليس من ناحية الاشتقاق الفكري. وكلام الكاتب عن ضرورة فهم التيارات الفلسفية اليونانية والإسلامية لا يفي بالغرض لفهم المعري، فلا لزوم للباحث أن يفهم الفلسفة اليونانية ولا الإسلامية. ثم ما هي الفلسفة الإسلامية؟

لندن **حسن سعيد الكرمي**